المحاضرة الأولى: أثر الفكر النقدي العربي في الفكر الروماني القديم (لونجين نموذجا)

حياة لونجين وكتابه «في السمو» وإشكالية التسمية والخلط التاريخي

حين نبدأ الحديث عن **لونجين** فإننا ندخل مباشرة في منطقة تاريخية يغلب عليها الغموض. فالمصادر القديمة لا تقدم لنا سيرة متكاملة واضحة المعالم، بل إشارات متناثرة جعلت شخصيته موضع جدل بين الدارسين. والرأي الراجح في الدراسات الحديثة أن صاحب كتاب **في السمو** عاش في القرن الأول الميلادي تقريبًا، في إطار الثقافة اليونانية الهلنستية التي كانت سائدة في شرق البحر المتوسط تحت الحكم الروماني. غير أن اسمه الحقيقي غير محسوم، ولذلك درج الباحثون على تسميته أحيانًا "لونجين المجهول" تمييزًا له عن شخصيات أخرى حملت الاسم نفسه.

ولا بد في هذا السياق من التوقف عند مسألة تعدد تسميات الكتاب نفسه. فالعنوان اليوناني الأصلي هو *Peri Hypsous*، أي "حول السمو" أو "في العلو"، وقد تُرجم إلى اللغات الأوروبية بعنوان *On the Sublime*.أما في العربية فقد استقر غالبًا بعنوان "في السمو"، وإن كان بعض الباحثين يميل إلى ترجمته بـ"في العظمة" أو "في السامي"، بحسب اختلافهم في نقل كلمة "Hypsous" التي تحمل دلالات الارتفاع والرفعة والعظمة الروحية. هذا التعدد في التسميات لا يعبّر عن اضطراب لغوي فحسب، بل يكشف عن ثراء المفهوم ذاته، إذ يجمع بين الدلالة البلاغية والدلالة الجمالية والفلسفية.

أما الإشكال الأكبر في تاريخ الكتاب فيتعلق بنسبة تأليفه. فقد ورد في إحدى المخطوطات عنوان يُفهم منه أنه من تأليف "ديونيسيوس أو لونجينوس"، وهي صيغة غامضة أدت إلى التباس في القراءة. وبسبب هذا الغموض نُسب الكتاب في فترات طويلة إلى الفيلسوف **كاسيوس لونجينوس**، الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، واشتهر بكونه معلمًا في البلاغة والفلسفة، ثم ارتبط اسمه بمدينة **تدمر** حين أصبح مستشارًا للملكة **زنوبيا**، قبل أن يُعدم بعد هزيمة تدمر على يد الإمبراطور الروماني **أوريليان** سنة 273م.

غير أن البحث الأكاديمي الحديث ميّز بين الشخصيتين. فالتحليل الأسلوبي والفكري لكتاب "في السمو" يشير إلى أنه ينتمي إلى مناخ القرن الأول الميلادي من حيث اللغة والاهتمامات النقدية، ولا يعكس النزعة الفلسفية التي تميز بها كاسيوس لونجينوس في القرن الثالث. كما أن المصادر التي ترجمت لحياة كاسيوس لونجينوس لم تذكر صراحة كتابًا بهذا العنوان ضمن مؤلفاته. ولهذا اتجه كثير من الباحثين إلى اعتبار مؤلف "في السمو" شخصية مستقلة أقدم زمنًا، مجهولة الاسم الدقيق، لكنها عُرفت تقليديًا باسم لونجين.

إن هذا الالتباس في الهوية لم يُضعف من قيمة الكتاب، بل ربما زادها خصوصية؛ إذ أصبح النص نفسه محور الاهتمام أكثر من صاحبه. فنحن أمام مؤلف تجاوز حدود سيرته، وأثر في تاريخ النقد الأدبي بوصفه نصًا مؤسسًا لفكرة "السمو" بوصفها تجربة جمالية تتجاوز البلاغة المدرسية. ومن هنا تأتي أهمية البدء بحياة لونجين وإشكالية نسبته، لأنها تمثل مدخلًا ضروريًا

لفهم طبيعة المشروع النقدي الذي قدّمه، وتكشف في الوقت ذاته عن تعقيد انتقال النصوص عبر العصور، وما يرافق ذلك من تحولات في القراءة والتأويل والنسبة التاريخية.

*** كتاب "في السمو":**

حين نتأمل تاريخ النقد الأدبي القديم، نجد أن اسم **لونجين** يحتل موقعًا فريدًا بين نقاد اليونان، لا لأنه وضع قواعد جديدة للبلاغة فحسب، بل لأنه نقل التفكير النقدي إلى مستوى التأمل الفلسفي في طبيعة العظمة الأدبية. وقد ارتبط اسمه بالرسالة المعروفة بـ **في السمو** (Peri Hypsous)، التي تُعد من النصوص المؤسسة في تاريخ الجماليات الغربية، رغم ما يحيط بنسبة الكتاب إليه من نقاش تاريخي. غير أن القيمة النظرية للنص جعلته يتجاوز مسألة النسبة، ليصبح علامة فارقة في مسار النقد.

جاءت رسالة "في السمو" في سياق ثقافي كان مشبعًا بالاتجاهات البلاغية التي تميل إلى تصنيف الأساليب وتحديد معايير الجودة وفق نماذج معيارية صارمة. غير أن لونجين لم يكن معنياً بإعادة إنتاج هذه المعايير بقدر ما كان مشغولًا بسؤال العظمة: ما الذي يجعل خطابًا ما خالدًا عبر العصور؟ ولماذا تحتفظ بعض النصوص بقدرتها على الإدهاش رغم تغيّر الأذواق؟ هذا السؤال يكشف عن انتقال واضح من التفكير في "الصواب البلاغي" إلى التفكير في "الأثر الجمالي"، أي من معيار الصحة إلى معيار التأثير.

*** مفهوم السمو عند لونجين:**

يعرّف لونجين السمو بوصفه قدرة الخطاب على أن يرفع النفس فوق مستواها العادي، فيُحدث فيها إحساسًا بالدهشة والارتقاء. فالنص السامي لا يكتفي بإقناع العقل أو إمتاع الذوق، بل يهزّ الكيان الداخلي للمتلقي ويشعره بعظمة تتجاوز حدود اللغة اليومية. وهنا تتضح الطبيعة الديناميكية لمفهوم السمو؛ فهو ليس صفة جامدة في النص، بل فعل يحدث في لحظة التلقي، لحظة التماس بين الخطاب والروح. ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن لونجين قد سبق كثيرًا من الاتجاهات الحديثة التي ربطت قيمة العمل الأدبي بتجربته القرائية.

*** مصادر السمو عند لونجين:**

ويؤكد لونجين أن السمو لا يتحقق بالزخرف اللفظي أو التكلّف الأسلوبي، بل ينبع أولًا من عظمة الفكرة. فالفكر الضيق لا ينتج خطابًا عظيمًا، والخيال المحدود لا يخلق صورًا سامية. لذلك يشدد على أن الكاتب ينبغي أن يكون صاحب رؤية واسعة ونفس كبيرة، لأن الإبداع انعكاس لجوهر صاحبه. هذه الرؤية الأخلاقية للفن تكشف عن ترابط عميق بين الجمالي والإنساني في تصوره؛ فالأدب عنده ليس مجرد صناعة، بل تعبير عن طاقة روحية تتطلب صفاءً داخليًا وسموًا في الطبع.

وإلى جانب عظمة الفكرة، يبرز عنصر العاطفة بوصفه شرطًا حاسمًا في تحقق السمو. غير أن لونجين يميز بين العاطفة الصادقة والعاطفة المصطنعة؛ فالأولى قادرة على إشعال النص

بطاقة حقيقية تنتقل إلى المتلقي، أما الثانية فمجرد ادعاء بلاغي لا يلبث أن ينكشف ضعفه. ومن هنا تبدو نظرته قريبة من مفهوم "الصدق الفني" الذي سيصبح لاحقًا محورًا في النقد الرومانسي. إن حرارة الانفعال عنده ليست مجرد عنصر جمالي، بل قوة توليدية تمنح الخطاب حياة داخلية.

ولا يغفل لونجين أهمية الوسائل البلاغية، لكنه يتعامل معها باعتبارها أدوات في خدمة العظمة لا غاية مستقلة. فالاستعارة، والتشبيه، والصور البيانية، كلها عناصر يمكن أن تسهم في تحقيق السمو إذا جاءت في سياق طبيعي منسجم مع الفكرة والعاطفة. أما إذا تحولت إلى استعراض تقني، فإنها تفقد قيمتها وتصبح عبئًا على النص. كذلك يولي اهتمامًا كبيرًا باختيار الألفاظ وبناء الجملة، ويرى أن الإيقاع والتأليف يسهمان في تشكيل الأثر الكلي للنص، بحيث تتآزر الأجزاء لتكوين وحدة جمالية متماسكة.

من الجوانب المهمة في نظرية لونجين أنه لا يفصل بين الشكل والمضمون، بل ينظر إلى العمل الأدبي بوصفه كيانًا عضويًا. فالأسلوب ليس قشرة خارجية، بل هو تجلّي الفكرة في صورتها الحسية. هذه النظرة العضوية ستجد صداها لاحقًا في النظريات التي ترى أن النص بنية متكاملة لا يمكن تجزئتها دون فقدان روحها. وهنا تتجلى حداثة تصوره، إذ يتجاوز النظرة الآلية إلى الأدب باعتباره مجموع عناصر منفصلة.

إن اهتمام لونجين بأثر النص في المتلقي يمنحه مكانة متميزة في تاريخ النقد. فهو يرى أن النص السامي يفرض نفسه فرضًا، ويترك في النفس أثرًا لا يُمحى. وقد عبّر عن ذلك بفكرة أن العظمة الحقيقية هي ما يصمد أمام الاختبار الزمني، لأن الزمن كفيل بكشف الزائف وإبقاء الأصيل. هذا الربط بين الخلود والقيمة الجمالية يعكس وعيًا عميقًا بطبيعة الأدب بوصفه تجربة إنسانية ممتدة عبر الأجيال.

*** أثر لونجين في النقد**

وقد كان لأفكار لونجين تأثير واسع في الفكر الأوروبي الحديث، إذ أعيد اكتشافه في عصر النهضة، ثم أصبح مفهوم السمو محورًا أساسيًا في فلسفة الجمال في القرن الثامن عشر. وقد تأثر به الفيلسوف الإيرلندي **إدموند بيرك** في تحليله للتمييز بين الجميل والسامي، كما أعاد الفيلسوف الألماني **إيمانويل كانط** صياغة المفهوم ضمن مشروعه النقدي، مانحًا السمو بعدًا يتصل بتجربة العقل أمام ما يفوق قدرته على الإحاطة. ورغم الاختلاف بين المعالجات الفلسفية اللاحقة ونص لونجين الأصلي، فإن جذور التفكير في السمو تعود بوضوح إلى تلك الرسالة اليونانية القديمة.

*** تقاطعه مع النقد العربي القديم:**

إن السؤال عن صلة لونجين بالحضارة العربية يقتضي التمييز بين الصلة المباشرة والصلة غير المباشرة. فمن الناحية التاريخية، لا توجد دلائل مؤكدة على أن العرب في العصور الكلاسيكية الإسلامية عرفوا كتابه في السمو معرفة مباشرة أو ترجموه ضمن حركة الترجمة

الكبرى التي ازدهرت في العصر العباسي. فالمصادر المتوافرة عن التراث المترجم إلى العربية تشير إلى اهتمام واسع بأعمال أرسطو وأفلاطون وبعض الشروح البلاغية، لكن لا نجد ذكرًا واضحًا لترجمة "في السمو" في تلك المرحلة.

غير أن غياب الترجمة لا يعني انعدام التقاطع الفكري. فمفهوم "السمو" عند لونجين، القائم على التأثير والانفعال وارتقاء النفس، يجد ما يقابله في البلاغة العربية، خاصة في تنظيرات الجرجاني حول النظم، وفي حديث البلاغيين عن التأثير والإعجاز والقدرة على تحريك النفس. صحيح أن هذه الأفكار نشأت في سياق مختلف، لكن ثمة تقاربًا في الوعي بأن قيمة الخطاب لا تقف عند حدود الصحة اللغوية، بل تتجاوزها إلى الأثر النفسي والروحي.

إن البلاغيين العرب، مثل عبد القاهر الجرجاني، قد ركزوا على فكرة العلاقة العضوية بين المعنى واللفظ، وهو ما يلتقي مع نظرة لونجين التي ترى أن العظمة الأدبية تنشأ من تلاحم الفكرة والأسلوب. كذلك فإن الحديث عن الإعجاز القرآني بوصفه خطابًا يُحدث رهبة ودهشة ويأسر النفس يقترب، من حيث التجربة الجمالية، من مفهوم السمو الذي طرحه لونجين، وإن اختلف الإطار العقدي والفلسفي بين الحضارتين.

أما الصلة المباشرة فقد بدأت في العصر الحديث، حين تُرجم كتاب "في السمو" إلى العربية وبدأ الباحثون العرب يدرسون نظرية لونجين في إطار المقارنات بين النقد اليوناني والبلاغة العربية. ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ومع انفتاح الثقافة العربية على الفكر الأوروبي، أصبح لونجين جزءًا من الدرس الأكاديمي في الجامعات العربية، وجرى توظيف مفهوم السمو في تحليل النصوص الشعرية والبلاغية.

وعليه يمكن القول إن لونجين لم يكن له تأثير مباشر في تشكيل البلاغة العربية الكلاسيكية، لكن ثمة تقاطعات فكرية عميقة بين تصوره للسمو وبعض مفاهيم البلاغة العربية، كما أن حضوره في الثقافة العربية الحديثة أصبح واضحًا من خلال الدراسات المقارنة والترجمات الأكاديمية. فالصلة إذن ليست تاريخية مباشرة، بل هي صلة فكرية وجمالية ظهرت بوضوح في العصر الحديث، وأتاحت إعادة قراءة التراثين في ضوء حوار حضاري ممتد.

وإذا حاولنا تقويم جهود لونجين في ضوء تاريخ النقد، أمكن القول إنه أسهم في إحداث تحول نوعي من نقد معياري يقوم على تصنيف الأساليب إلى نقد جمالي يبحث في سر التأثير والعظمة. لقد ربط الأدب بالروح، وجعل من التجربة الجمالية فعل ارتقاء إنساني. وبذلك مهّد الطريق لظهور تصورات ترى في الأدب قوة قادرة على توسيع أفق الوعي، لا مجرد مهارة لغوية.

إن أهمية لونجين اليوم لا تكمن فقط في قيمته التاريخية، بل في راهنية أسئلته. فما يزال سؤال العظمة الأدبية حاضرًا في الدراسات النقدية المعاصرة، وما يزال مفهوم التأثير الجمالي محورًا للنقاش. ومن هنا يمكن القول إن رسالة "في السمو" لم تكن مجرد نص في البلاغة، بل

كانت تأملاً عميقًا في طبيعة الإبداع ذاته، وفي قدرة اللغة على أن تسمو بالإنسان إلى آفاق تتجاوز حدود العادي والمألوف.

مراجع المحاضرة:

عبد الرحمن بدوي، *تاريخ النقد الأدبي عند اليونان*.

فؤاد عبد المطلب:كتاب لونجين في السمو: محاولة كلاسيكية مبكرة في النقد الفني والرومانتيكي والمقارن